"جدل التراث والحداثة في الكتابات اللسانية النصية العربية "

د/جلال مصطفاوي*

تمهيد:

تكتسي اللغة أهمية بالغة في الحياة الإنسانية، لصلتها الوثيقة بالفكر والأفكار، فلا يمكن للإنسان أن يفكر لحظة واحدة خارج دائرة اللغة، ولا بدّ للإنسان أن يتواصل مع غيره ليعبر عن تجاربه ومقاصده وتفاعله مع الحياة وليبني علاقاته الاجتماعية الضرورية،ولا يتمّ هذا التواصل إلا باللغة الوسيلة الجوهرية التي تتكفل بحمل الوعي والفكر،بل إنّ اللغة هي التي تمنح العالم الوجود(اللغة بيت أو سكنى الوجود كما يقول"هيدجر"). كما أن اللغة تشغل حيّزا بارزا في كافة الحقول المعرفية على اختلاف مشاربها وتعدّد غاياتها. ولمّا كانت للغة هذه المكانة العظيمة فقد حظيت باهتمام الدارسين منذ القديم، ويصنّف المؤرخون الابستمولوجيون الدراسات اللغوية إلى اتجاهين مختلفين من حيث المنهج والمعطيات الإجرائية، وهما: المقاربة الشكلية للغة (وهي التي تتعامل مع اللغة في سكونيتها وثبوتيتها(ستاتيك) في سبيل معرفة بنائها والنظام الذي تقوم عليه تراكيبها...). والمقاربة التواصلية للغة (وهي التي تُعنى بدراسة اللغة في حيويتها وديناميكيتها، أي أثناء استعمالها ما بين البشر في سياقاتها المتعددة).

وفي التراث اللغوي العربي نجد اهتماما بهذا الاتجاه(=التواصلي)، فقد كان السماع من أهم مصادر تقنين اللغة وجمعها عند الكوفيين،كما أن النحاة في تعاملهم مع الجملة (اتجاه الإفادة) يشترطون حصول الفائدة (يحسن السكوت عليه) والإفادة فكرة أو معنى يستلزم التسليم بأن اللغة لا تكون إلا في شكل منطوق في سياق تواصلي اجتماعي. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاتجاه يتجلى بوضوح أكبر في الدراسات البلاغية العربية التي ركّزت على دراسة اللغة بربطها بالسياقات التي تكتنفها(فكرة مقتضى الحال-نظرية النظم-علم المعاني...)..ولم يقتصر الاهتمام بدراسة اللغة في السياق على العلوم اللغوية البحتة، بل تجاوز ذلك إلى علوم أخرى، إذ كانت اللغة، وفق هذا الاتجاه هي أساس الدراسة عند تفسير القرآن بربط الآيات بأسباب النزول، وكذلك في علمي الفقه وأصوله[1].

أما في الدراسات الغربية فقد تجلّى الاتجاه التواصلي في مناهج متعددة أهمها: المنهج التداولي-النحو الوظيفي-تحليل الخطاب-لسانيات النص وغيرها. وإذا كان الاتجاه الشكلي(البنيوي والتوليدي) يركّز على اللغة كنظام معزول عمّا هو خارج عنه، أي في بعديه التركيبي والدلالي..وإذا كانت التداولية اتجاها تواصليا يهتم بدراسة اللغة أثناء الاستعمال وبيان الأفعال الكلامية وتصنيفها والعلاقة القائمة بين العلامات اللسانية ومستعمليها (المتكلم والمتلقي) من أجل السيطرة على المقاصد الحيوية للخطاب، فإن لسانيات النص(في نماذجها المتقدمة: (فان ديكVan Dijk-دي بوجراندR.De Beaugrande)تدمج الرؤيتين معاً، فالدراسة النصيّة_في نظر دي بوجراند(De Beaugrande)_تتطلّب ثالوثا من الاتجاهات، وهي:

"النحو: الترابط الرصفي

الدلالة: الترابط المفهومي

التداولية: أعمال-خطط-أغراض)"[2]

---

*-أ.جلال مصطفاوي، المركز الجامعي عين تموشنت

فقد شدّد دي بوجراند (De Beaugrande) على أن نظرية استعمال اللغة يتوجب عليها أن تقوم على أساس مفهوم الترابط حيث عدّه من دواعي الكفاءة النصية أو المعيار الأهم في نصية النص كما قال بذلك هو وزميله "درسلر(Dressler)".

إذاً، فلسانيات النص(علم لغة النص) اتجاه علمي لغوي بكر، يُعنى بدراسة النص في كليته مع مراعاة بعده الاتصالي والتركيز على دور السياقات المحيطة به، وتقوم منهجيته في التحليل على أساس تجاوز لسانيات الجملة (نحو الجملة) التي تقف عند حدود الجملة كموضوع. إلا أنّ مسار التكوّن التاريخي لهذا العلم يكشف عن وجود محاولات عديدة ضاربة في أعماق التاريخ تهدف إلى وصف ظواهر نصية مفردة، وتتجلى هذه المحاولات بشكل خاص في علم البلاغة الغربية الكلاسيكية(فن الخطابة عموما) وعلم البلاغة الغربية الكلاسيكية المدرسية (فن المرافعة الخاصة أمام المحاكم) وعلم البلاغة العربية، فقد اهتم البلاغيون منذ القدم بدراسة بعض المظاهر الخطابية انطلاقا من وعيهم بتماسك الخطاب وارتباط أجزائه، الأمر الذي أدّى إلى السموّ بالخطاب إلى مستوى التعبير القادر على احتواء المتلقي والتأثير في وجدانه، وإقناع عقله. لكن هل معنى هذا الكلام أن مضامين لسانيات النص قديمة تلبس ثوبا جديدا؟ ثمّ ما الذي سوّغ للباحثين العرب المحدثين الجمع بين البلاغة العربية ولسانيات النص؟ هل يعدّ منهج الدراسة واحدا في كليهما أم أنهما يتفقان في الغاية؟

1-إشارات لسانية نصية في التراث البلاغي:

1-أ-في البلاغة الغربية:

يعدّ كل من(أرسطو (384-322ق.م) و(شيشرون (106-43ق.م) و(كوينتيليان(35تقريبا-96م) أهم ممثل للخطابة في الغرب. وقد ارتبط مفهوم الخطابة أو الريطورية ارتباطا وثيقا بغايتها التي تتمثل في الإقناع. فالريطورية _حسب الترجمة العربية القديمة_"قوة تتكلّف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"[3]. وفي تعريف كوينتيليان:"ترمز البلاغة منذ القدم إلى أنها فن الخطاب الجيد"ars bene dicendi وقد عرف الوصف"جيد" تفسيرات متعددة بتعدد الاتجاهات البلاغية فهو يتطلب أن يتمتع الخطيب بأخلاق تخوّل له التأثير في الجمهور وأن يناسب خطابه المقام وأن يكون جميلا لغويا وأن يحقق مقصده الأساس وهو التأثير في المستمعين. وتكشف محاورات أفلاطون(جورجياس-فيدر)عن المكانة العظيمة التي كانت تحظى بها الخطابة في المجتمع اليوناني القديم"وهي مكانة كانت تؤهلها لمنافسة الفلسفة بل حاولت نفيها من مجال الحياة والسياسة وقد تصدّى سقراط لهذه النزعة التي استفحلت عند السوفسطائيين."[4] وهي بحق تستحق هذه المكانة بالنظر إلى فعاليتها المتميزة في الحياة اليونانية القائمة على النظام الديمقراطي الذي يعدّ المناخ المناسب لأساليب الإقناع.

-أقسام الخطابة عند "أرسطو":

لقد صنّف(أرسطو)الخطابة باعتبار المخاطبين إلى أنواع وهي:

أ-الخطابة القضائية: ويكون المخاطب فيها قاضيا يُنتظر منه أن يصدر حكما وقع في الماضي.

ب-الخطابة الاستشارية: يكون المخاطب فيها عضوا في جمعية يشاوره الخطيب في القضايا السياسية المستقبلية.

ج-الخطابة المحفلية: وهي التي تُلقى في المحافل العامة على جمهور مختلط من الناس.

وقد اقترح(أرسطو)_بناءً على المقامات الثلاثة وأنماط المخاطبين_وسائل إقناع تناسب كل صنف من أصناف الخطابة.

-مراحل إنتاج النص الخطبي عند "أرسطو":

لقد كان لزاما على الخطيب-في أنموذج أرسطو-أن يتبع خطوات أو إجراءات محددة في إنتاج نصه في سبيل تحقيق الوظيفة الإقناعية، إجراءات تتسم بالانتظام والدقة، فالخطيب يهدف إلى إقناع المخاطب بقضيته التي يدافع عنها. وقد لخصها(رولان بارتRolan Barthes) في قراءته المحكمة للبلاغة القديمة في خمسة، وهي:

1-**الابتكار أو الإيجاد:** العثور على الأفكار المناسبة للموقف والملائمة للمرافعة.

2-**الترتيب أو التنظيم:** التقسيم المنطقي للمرافعة إلى فقرات:

-**الافتتاح** (الموجز/الديباجة): مقدمة يُثار فيها اهتمام المستمع.

-**العرض:** وهو جوهر الخطاب، يتمّ فيه عرض الموضوع.

-**الحجاج:** توضيح الأدلة والحجج التي تؤيّد وجهة نظر الخطيب، وبيان الأدلة المضادة.

-**الختام:** يؤكّد الخطيب فيه على ما برهن عليه ويطلب فيه من القاضي أن يصدر حكما لصالح الموكل.

3-**الصياغة الأسلوبية (العبارة):** تحويل الأفكار المختارة إلى أشكال تعبيرية.

4-**التذكّر(الذاكرة):** استظهار الخطاب من أجل حفظه واسترجاعه.

5-**الأداء أو الإلقاء:** وهو مسرحة القول أي الإلقاء الحيوي للخطاب بمصاحبة حركات يدوية ونطق سليم مطابق للمعايير.[5]

وصفوة القول:إن البلاغة الكلاسيكية(الخطابة) عند اليونان كادت تكون السابقة التاريخية لما يُعرف اليوم بلسانيات النص، وذلك من خلال:

أ-العناية بالمقام: ويتجلى ذلك بوضوح في تركيز اهتمامها على متلقي النص، من حيث طبقته الاجتماعية وسنه وغير ذلك(تقسيم الخطابة إلى أضرب).

ب-العناية بالنص وترتيبه: توفر لنا البلاغة قواعد إنتاج نصوص تحتكم إلى الانسجام والمنطقية(مراحل إنتاج النص).

ج-ثمّ إن **تحقيق غاية الإقناع** يتطلب،بل يفرض على الخطيب التزام استراتيجية معينة جوهرها التركيز على النص والمتلقي وتجاوز كل ما هو جزئي.

يقول جميل عبد المجيد:"..رأى(فان ديك""Van Dijk) أنه يمكن أن نعد البلاغة السابقة التاريخية لعلم النص، لكن اختزال بلاغة أرسطو(الخطابة) في مراحل زمنية تالية-حين انحصرت في العملية الثالثة(العبارة)، بحيث أصبح مفهوم هذه البلاغة منصبا على وجوه الزخرفة، جعل (فان ديك) يستبعد البلاغة بمفهومها الأخير الضيق ليُؤثر عليها علم النص ذا المفهوم الأوسع."[6].

1-ب-في البلاغة العربية:

لقد تأثر اللغويون العرب في العصر الحديث بعلم لغة النص أو لسانيات النص، وقد أفرز هذا التأثر دراسات وأبحاثا كثيرة تؤسّس لهذا العلم وتحكّم آليات عمله، وتطبّق إجراءاته الوصفية والتحليلية على النتاج اللغوي العربي،وما يشدّ الانتباه أننا نجد في مضامينها اتفاقا على أن البديع العربي قد تضمن دراسة ظواهر عديدة أهمها التكرار والمطابقة ذات صلة وثيقة بلسانيات النص. ذلك أن التماسك المعجمي يرتكز أساسا على آليتين وهما: التكرار والمصاحبة المعجمية.

ومن هنا يشير (جميل عبد المجيد) إلى فروق أساسية ما بين معالجة البلاغيين العرب ومعالجة اللسانيين النصيين لظاهرة التكرار،بعد أن قام بعرض المعطيات المعرفية الخاصة بالظاهرة في المقاربتين، بقوله:"...ثمة مفارقات بين البلاغيين العرب وعلماء لغة النص في معالجة ظاهرة التكرار، نجملها فيما يلي:

الأولى: معالجة هذه الظاهرة_عند البلاغيين العرب_من منظور بلاغي صرف، ومن ثم كان التركيز على الكلام الأدبي والشعري خاصة، وكذلك القرآن الكريم من حيث إعجازه البلاغي. بينما عولجت الظاهرة_عند علماء لغة النص_من منظور لساني صرف، ومن ثم شملت النصوص بمختلف أنواعها، على أن منهم من حاول كشف نحو النص الأدبي/الشعري، مثل (فان ديك).

الثانية: عدم الاقتصار في هذه المعالجة_عند علماء لغة النص_على مستوى الجملة، بل تجاوز هذا المستوى إلى الجمل والفقرة والنص بتمامه. بينما ركّزت المعالجة_عند البلاغيين العرب_أكثر ما ركّزت وخاصة في مرحلة التقعيد على الجملة أو البيت وإن جاءت عندهم أحيانا شواهد تجاوزت هذا المستوى.

الثالثة: وقف علماء لغة النص على أربع درجات للتكرار، وهم في هذا أفادوا من الدراسات اللغوية والدلالية المعاصرة، بينما وقف البلاغيون العرب على درجتين فقط(إعادة العنصر المعجمي، والترادف أو شبه الترادف) لكن في الشواهد التي أوردها البلاغيون العرب وتعليقات بعضهم عليها ما يفيد رصد الدرجة الثالثة في سلم التكرار(الاسم الشامل) وإن لم يصطلحوا على تسميتها،كما أن عندهم رصدا دقيقا وشاملا لأنماط عديدة من إعادة العنصر المعجمي، وقد خصّوا كل نمط بمصطلح خاص وعدّوه فنا برأسه من فنون البديع، وربما يرجع ذلك إلى التنافس فيما بينهم على رصد نوع أو فرع جديد من البديع.

الرابعة:سيطرت الغاية التقعيدية التعليمية على البلاغة العربية، بينما سيطرت على علماء لغة النص الغاية الوصفية التشخيصية.

وكان من نتائج هذه المفارقات،كشف البلاغيين العرب عن جانب أو جوانب دور هذه الظاهرة في أدبية الكلام وشعريته على مستوى الجملة أو البيت غالبا،بينما كشف علماء لغة النص عن دور هذه الظاهرة في السبك،والذي هو عندهم من أهم عوامل النصية."[7]

والمطابقة من فنون البديع العربي تقوم أساسا على ما يعرف بالمصاحبة المعجمية أو التضام،حيث تتجلى فيها العلاقات المتعددة والمختلفة بين زوج أو أكثر من الألفاظ،وتنحلّ إلى ثلاثة أنواع وهي: مطابقة الإيجاب ومطابقة السلب وإيهام التضاد، وتهدف إلى بيان المعنى وتوضيحه، فهي من محسنات البديع المعنوية، فالضدّ يحيل إلى ضده في الجملة أو البيت، يقول الشاعر في وصف الملكة الحسناء(من قصيدة اليتيمة):

فالوجه مثل الصبح مبيّض   والشعر مثل الليل مسود

ضدان لما استجمعا حسنا   والضد يظهر حسنه الضد (العكبري. 23:1870)

ولمّا كانت المطابقة علاقة قائمة بين العناصر الواردة في القول أو البيت الشعري فإنها تشكّل مظهرا من مظاهر الترابط المعجمي داخل الجملة في أغلب الأحيان."...إلا أن هذا الواقع لا ينبغي أن ينسينا أن علاقة المنافرة يمكن أن تساهم كآلة في نسج الخطاب...وقد اجتهد البلاغيون في رصد الأبيات المنظومة المعتمدة على علاقة المطابقة ولكنهم لم يتبعوا المطابقة كآلية معجمية مساهمة في اتساق الخطاب(القصيدة)، ولعل عذرهم في ذلك هو أنهم يصفون الأساليب البلاغية المختلفة التي تضفي على الاستعمال رونقا وجمالا"(12)[8].

مناقشة:

انطلاقًا مما سبق بيانه،خلصتُ إلى فكرتين أساسيتين، تتمثل الأولى في أن لسانيات النص لا يُؤخذ معناها من اسمها، فهذا الأخير يحصرها في البحث في لغة النص فقط، أي في البنى النصية وكيفية تراتها وتآلفها، وقد يترجم مصطلح لسانيات النص إلى "علم لغة النص". وفي الحقيقة فإن لسانيات النص في بدايتها(فرضية التوسيع)، كانت تُعنى بسطح النص وشكله اللغوي، أي أنها كانت تهتمّ بنظام اللغة وبنيتها فقط، مزوّدة بخلفية نظرية قوامها أنه من الممكن استثمار قواعد الجملة(نحو الجملة) في تحليل النص، ما دام النص عبارة عن سلسلة من الجمل المترابطة، فكأنهم يقولون بأن النص هو الجملة،فهما يتقاطعان في خصائص عديدة، مثل الطابع البنيوي والصياغة الزمنية، وأنهما لانهائيان من حيث الكمّ في أيّ لغة من اللغات...لكن مع تطوّر الأبحاث في لسانيات النص، تجاوز العلماء لغة النص كنظام، وعمدوا إلى ربطها بالاستعمال، على اعتبار أن المعاني ليست متأصّلة في الوحدات اللغوية، بل تتلبّس بمستخدميها والسياقات التي أُنتجت في خضمّها،فتحوّل اهتمام اللسانيين النصيين من لغة النص إلى البعد الدلالي للنص (العلاقة بين اللغة والمرجع) والبعد التداولي (العلاقة بين اللغة والمستخدمين أو المؤوّلين)، فالغاية التي يسعى إلى تحقيقها هذا العلم هي بيان كيف يتمّ الاتصال من خلال النصوص.

أمّا الفكرة الأساسية الثانية فتتمثل في العلاقة بين الإشارات النصية المبثوثة في التراث العربي والغربي وهذا العلم حديث النشأة، فنحن نجد الكثير من الباحثين يردّ هذا العلم إلى تاريخ سابق ضارب في أعماق الماضي،فما هو إلا علم قديم قُدّم بشكل جديد منظم.

إنّ المراجعة الموضوعية لهذا الحكم تجعلنا نسلّم بأن تراثنا العربي والتراث الغربي تضمّن أفكارا لها علاقة وثيقة باللسانيات النصية،لكنّها تظلّ مجرد إشارات، ومطابقة الإشارات النصية بالعلم الجديد مظهرٌ من مظاهر التعصّب للتراث-في رأيي-لأن الأنموذج أو النموذج الإرشادي عند"توماس كون"(Le Paradigme) نسقٌ من الإجراءات المنظمة بإحكام بالغ،له موضوع محدّد، ومنهج محدّد، وغاية يبغي الوصول إليها. فكلّ علم تحكمه محدّدات تميّزه عن غيره من العلوم، وهي التاريخ(على اعتبار أن المعرفة تراكمية ولا تنبثق من فراغ)، والموضوع(النص في الأنموذج اللساني النصي مثلا)، والمنهج(التركيبي مثلا)، والغاية(تحقيق الاتصال). وهذه المحدّدات ليست تنظيما لمعطيات سابقة فقط، بل هي اجتهاد محمّلٌ بثقافة زمن جديد متطوّر...وسنحاول فيما يلي ومن خلال هذه الورقة أن نقدّم بطاقة تعريفية لهذا العلم قبل مناقشة تلقيه في الدراسات العربية.

3-الأنموذج اللساني النصي:

3-1-فضاء النشأة:

غني عن البيان أن نحو الجملة_مع الاعتراف بقيمته المعرفية الكبيرة_قد عجز عن رسم معالم الطريق العلمي المنهجي لفهم اللغة بأشكالها المتعددة والإبداعية، ومستويات استخدامها المتنوعة، ويعزى ذلك لوقوفه عند حدود الجملة التي كانت تمثل الوحدة الكبرى في الدراسة والتحليل، الأمر الذي جعل تجاوز مستوى الجملة في التحليل اللساني أمرا لا مناص منه"قثمة ظواهر لا يمكن أن توصف في إطار التي تنتقل من كونها كلّا في مرحلة عزلها عن سياقها المقالي والمقامي إلى مرحلة تكون فيها جزءا من منظومة أكبر هي النص."[9] وقد أشار(درسلر Dressler) في صدد حديثه عن بدايات تكوّن علم لسانيات النص إلى العمل المبكر لـ(H.Weil) 1887 حيث علّق تتابع اللفظ على تتابع الأفكار وفصل هذا التتابع عن النحو، وعرض من خلال هذا الإجراء جملة من المعايير الوظيفية التي تحكم الجملة ومفهوما خاصا بأسلوب الأفكار أيضا."10، ويرى محمد الشاوش تعقيبا على هذا المنهج أن"(تتابع اللفظ متعلق بتتابع الأفكار) كانت حجر الزاوية في فكر الجرجاني مع الفارق الكبير المتمثل في فصل(Weil) تتابع الأفكار عن النحو وربط الجرجاني بينهما."[11] وقد ذكر سعيد بحيرى في التأريخ لهذا العلم،بأن كثيرا من الدارسين رأوا بأن بداية البحث في النص تعود إلى رسالة الباحثة الأمريكية(I.Nye) التي قدمت أطروحتها للدكتوراه سنة1912، وتضمنت فصلا يبحث في الربط بين الجمل، وتعرضت أيضا لدراسة بعض الظواهر النصية مثل ظاهرة النقصان وعدم الاكتمال وظاهرة التكرار وغيرها أنها أشكال محددة للعلاقات الداخلية بين الجمل المختلفة وحاولت اكتشاف كنه هذه العلاقات[12]. من جهة أخرى يرى كثير من الباحثين أن البداية الفعلية الحقيقية لتحليل الخطاب كانت على يد (زيلج هاريس Zellig Harris) في بدايات النصف الثاني من القرن العشرين. يقول سعد مصلوح: "ولم يبدأ الاتجاه إلى نحو النص في فرض وجوده إلا مع بدايات النصف الثاني من هذا القرن، حيث نشر(زيلج هاريس) دراستين اكتسبتا أهمية منهجية في تاريخ اللسانيات الحديثة تحت عنوان تحليل الخطاب (Discourse Analysis) إذ أنه بهاتين الدراستين لم يكن أول لساني حديث يعدّ الخطاب موضوعا شرعيا للدرس اللساني فحسب، بل إنه جاوز ذلك إلى تحقيق قضاياه التي ضمّنها برامجه بتقديم أول تحليل منهجي لنصوص بعينها، وقد خرج بذلك عن تقليد أرساه(بلومفيلد) يقضي بأن التعبير المستقل بالإفادة أو الجملة هو ما يهتم به اللساني، أما النص فليس إلا مظهرا من مظاهر الاستعمال اللغوي."[13] وقد تطور البحث اللساني النصي بعد ذلك بمجموعة من المحاولات الجادة، منذ النصف الثاني من الستينيات،لتظهر المحاولة الرائدة التي قدّمها كل من (هاليداي Halliday) و(رقية حسن)في كتابهما"التماسك في الإنجليزية"(Cohesion in English) في سنة1976، حيث عالجا بالدرس وسائل الربط التي تتجاوز مستوى الجملة تطبيقا على اللغة الإنجليزية...وفي عام1977بسط(فان ديك Van

Dijk) تصورا جديدا لتماسك النصوص في كتابه"النص والسياق"(Text and Context)، فلم يكتف بدراسة البنية الداخلية للنصوص كما فعل هاليداي ورقية حسن، بل وظّف المعطيات التداولية، وربط بنية اللغة النصية بالعالم الخارجي(سياق الاتصال) ثمّ قدّم بعد ذلك رؤية أكثر شمولا في مؤلفه(علم النص مدخل متداخل الاختصاصات) حيث درس النص من زوايا متعددة ومتكاملة:الدلالية والبلاغية والتداولية والاجتماعية والسيكولوجية والأسلوبية، وهي زوايا تتضافر في سبيل فهم النص وتفسير آليات إنتاجه وجماليات تلقيه.

وفي سنة(1981)رسم كل من(درسلرDressler) و(دي بوجراندDeBeaugrande)معالم منهج شامل يستثمر كل الجهود النصية السابقة عليهما،ووضعا مدخلا لدراسة النص في كتابهما"مدخل إلى لسانيات النص"(Introduction to text linguistics) من خلال سبعة معايير للنصية(=ما يميّز النص من اللانص) وهي: التماسك والانسجام والإعلامية والتناص والسياق والقصدية والمقبولية.

2-3-مسوّغات التحوّل من الجملة إلى النص:

يعلّل سعد مصلوح التحوّل إلى نحو النص بقوله: "...ثمة إذن نمطان من النحو، أما أولهما فنشير إليه في العنوان بمصطلح نحو الجملة(Sentence Grammar)، وإليه ينتمي النحو العربي في صورته المعروفة، ونحو الجملة هو طراز من التحليل النحوي يقيّد معالجته بحدود الجملة أو القول المفيد إفادة يحسن السكوت عليها، ويرى فيها أكبر وحدة لغوية يطمح إلى تحليلها وتقعيدها، على خلاف بين المدارس اللسانية في مفهوم التقعيد نفسه: أهو تصور تنظيمي يقترحه الباحث مسقطا إياه على المادة اللغوية،أم هو كشف واستكناه لنظام باطن ومستكن بالفعل وراء ظاهرات السلوك اللغوي؟ ونحو الجملة حين يعدّ قواعدها منتهى همّه ومبلغ علمه لا يقرّ للنص بكينونة متميزة توجب معالجة تركيبه معالجة نحوية تستجيب لمقتضيات بنيته وتكون مؤهلة لتشخيصها ووصفها، وبهذا يقع النص خارج مجال الدرس النحوي."[14]ويضيف سعد مصلوح مستطردا:"...إن نحو النص الذي نريده وندعو إليه هو نمط من التحليل ذو وسائل بحثية مركبة تمتد قدرتها التشخيصية إلى مستوى ما وراء الجملة،وتشمل علاقات ما وراء الجملة مستويات ذات طابع تدرجي،يبدأ من علاقات ما بين الجمل،ثم الفقرة،ثم النص أو الخطاب بتمامه."[15] وفي السياق نفسه يقول (برند شبلنرBernd Spillner): "يقوم علم لغة النص على فكرة أن النص يعدّ الموضوع الرئيسي في التحليل والوصف اللغوي، هذا على الرغم من أن الجملة تعدّ(تقليدا ومازالت)أكبر وحدة لغوية. هكذا كانت النظرة إلى النحو التحويلي في شكله المعروف الذي ظهر لأول مرة في السنوات الخمس عشرة الماضية على أنه نحو الجملة، فالجملة هي المقصد في القضية التحويلية. وتعرف اللغة في النظرية التحويلية على أنها مجموعة من الجمل التي ينتجها النحو، إن تركيبة(المتكلم-السامع) تتقرّر بناء على الكفاءة نحوية الجملة وقبولها، وسبقت الإشارة إلى أن وحدة (الجملة) ليست كافية لكل مسائل الوصف اللغوي، وهكذا يمكن الحكم بقبول جملة ما إذا أرجعها الإنسان إلى الجملة السابقة، وتتضح الحاجة إلى إرجاع المسائل العملية البسيطة إلى معلومات الجمل السابقة..."[16].

ويوضّح (محمد العبد) في كتابه:اللغة والإبداع الأدبي قيمة هذا التحول بقوله: "لقد رأى علماء علم اللغة النصي من أمثال(بتوفيJ.S.Petofi)، و(هاريسZ.Harris) وغيرهما، رأوا أن الجملة ليست كافية لكل مسائل الوصف اللغوي، إذ لا بد من أن يتجه الوصف في الحكم على وحدة الجملة من وضعها في إطار وحدة كبرى هي النص. وقد عدّ علم لغة النص في رأيهم تطوّرا وتوسيعا لعلم لغة الجملة الذي شُغل به البنائيون الأمريكان منذ(بلومفيلد)، كما شُغلت به مدرسة (تشومسكي) في الكفاءة اللغوية التي توصف توليديا في إطار القدرة على توليد الجمل. وقد استطاع(هاريس) بمناهجه النصية المبكرة التي اعتمدها في تحليل الخطاب(1952)تطوير المناهج البنيوية المتبعة في تحليل الجملة. لقد عُني علم اللغة النصي في دراسته لنحو النص بظواهر تركيبية نصية مختلفة منها: علاقات التماسك النحوي النصي، وأبنية التطابق والتقابل، والتراكيب المحورية، والتراكيب التابعة والتراكيب المجتزأة، وحالات الحذف، والجمل المفسرة والتحويل إلى الضمير والتنوعات التركيبية وتوزيعها في نصوص فردية،وغيرها من الظواهر التركيبية التي تخرج عن إطار الجملة المفردة، وهي التي لا يمكن تفسيرها

تفسيرا كاملا دقيقا إلا من خلال وحدة النص الكلية."[17].ويقول حماسة عبد اللطيف في كتابه النحو والدلالة: "إن تجزئة النص من أجل دراسته ليست تجزئة يراد بها تحنيط هذه البقايا المجزأة،ولكن يراد بها أن نفهم عقليا حركة الأجزاء والعلاقة فيما بينها في الجسم الحي الذي نحبه وهو النص"[18].

فالنص هو الغاية المنشودة وإن كانت نقطة البدء في التحليل هي الجملة.انطلاقا من الأقوال السابقة نستنتج بأن مسوّغات التحوّل لسانيات الجملة إلى لسانيات النص كثيرة ومتنوعة وضرورية أهمها أن لسانيات الجملة تدرس الجملة بمعزل عن مختلف السياقات التي أنتجتها (لغوية، مقامية، اجتماعية...) في حين أنه يجب الربط ما بين بنية الجملة الجملة اللغوية وبقية الجمل السابقة واللاحقة التي تكوّن معها جسد النص.ثمّ إن دلالة النص ليست هي مجموع الدلالات الجزئية للجمل، فالنص مشفّر في الجمل ويتكوّن من خلال الجمل وليس بالجمل، لذلك فللنص كيانه الخاص المستقل عن مجرد جمع جمله. أضف إلى ذلك أن الاقتصار على الجملة لا يمكن أن يكشف عن طبيعة النص ونمطه (حجاجية، سردية، وصفية، إخبارية....الخ) والتي من شأنها أن تغذي فهمنا وتذوقنا للنص المراد تحليله...

وفي الختام نورد تلخيصا لمسوّغات الانتقال من نحو الجملة إلى نحو النص، قدّمه (خليل بن ياسر البطاشي)حيث يقول: "وهناك مجموعة من الأسباب دعت اللغويين إلى توسيع مفهوم النحو ليشمل النص بعد أن كان مقصورا على تحليل الجملة،منها:

1-أهمية البعد عن الشواهد المتكلفة في أثناء المعالجة اللغوية، والحاجة لشواهد عفوية مقنعة بالظاهرة اللغوية موضوع الدراسة وتلك الشواهد أوفر في الجملة الواحدة بل في نص متكامل أُنتج في موقف ما.

2-عدم اكتفاء الجملة المفردة بذاتها وحاجتها إلى ما حولها من الجمل، أي بترها عن سياقها لا يعطيها دلالة صادقة، ومن ثم يفقد التحليل صفة الوعيية، لذلك تباينت القراءات الحديثة_القائمة على أساس أن النص كل متكامل_للنصوص القديمة(مثل المعلقات) عن القراءات القديمة للنصوص نفسها، التي نهجت في تحليلها نهج الاهتمام بأجزاء النص، وفصلها بعضها عن بعض.

3-في الاقتصار على دراسة الجملة تجاهل لنواح دلالية وسياقية كثيرة، مما يؤدي إلى التركيز على الجوانب التركيبية البحتة، ويحوّل اللغة إلى شكل فارغ من أي مضمون، ماعدا البنية السطحية الظاهرة لها. وإذا صلح هذا في دراسة الخطاب اليومي فلن يصلح في دراسة اللغة الأدبية.

4-انفتاح الدراسات اللغوية على مختلف العلوم الإنسانية مثل علم الاجتماع وعلم النفس والإعلام مما أدى إلى الحاجة الماسة إلى دراسة أثر هذه الجوانب في العملية الاتصالية.

5-عندما نعتمد التحليل النصي نجد أن هناك إمكانية عالية لتأويل الأوضاع المختلفة للجملة بناء على السياق الواردة فيه،على العكس من حالة فصل الجمل عن سياقاتها.

6-الحكم على تركيب ما أنه جملة من عدمه يكون حسب المقابلات و المقارنات بين الأنماط المعهودة المتفق عليها، أما النص فيكون الحكم عليه من خلال تحقيقه لوظيفة الاتصال، وإن خالف بعض القواعد النحوية وشذّ عنها أحيانا كما يحدث في الشعر، إذ تبرز فيه ظاهرة الانحراف عمّا تمّ الاتفاق عليه من الناحية التقعيدية لكنه على الرغم من ذلك يحقق الوظيفة الاتصالية بكفاءة عالية.أي أن للنص_كما يرى دي بوجراند_وظيفة براغماتية وهدفا يراد تحقيقه منه بعكس الجملة.

7-العوامل الاجتماعية والنفسية أوثق علاقة بالنصوص منها بالجمل."[19]

3-3-مفهوم لسانيات النص(أو نحو النص):

مصطلح لسانيات النص واحد من المصطلحات العديدة التي وُضعت لترجمة مصطلح لساني حديث شاع في الأبحاث اللغوية النصية في أروبا،فهو في الإنجليزية(Text Grammar) وفي الفرنسية(Grammaire de texte) وفي الهولندية(Textgrammatik). وقد نقله بعض المترجمين إلى العربية بمصطلح نحو النص أو نحو النصوص، أو علم اللغة

النصي، ونظرية النص وعلم النص أو علم لغة النص أو أجرومية النص أو لسانيات النص، ولغويات النص أيضا"وهذا الاضطراب راجع إلى عدم استقرار هذا المصطلح في الغرب فقد عُبر عنه في الإنجليزية أيضا (Linguistics of text) و(Text linguistics) إلى أن أصبح(Text Grammar) أكثرها قبولا ودورانا."[20] وفي التركيب(نحو النص) يأخذ مصطلح(نحو)هنا"دلالة خاصة فهو يعني كل القوانين التي تحكم نظاما ما"[21].

فلما كان النحو في اصطلاح النحويين علم بأصول يعرف بها أحوال أواخر الكلم إعرابا وبناء، وغرضه معرفة صواب الكلام من خطئه فإن "نحو النص في اصطلاح النصيين علم بمبادئ وأصول يُعرف بها تماسك النص انسجاما واتساقا، وغرضه معرفة مدى تحقق نصية النص"[22]. ويمكن تحديد مصطلح لسانيات النص بأنه"العلم الذي يبحث في سمات النصوص وأنواعها وصور الترابط والانسجام داخلها،ويهدف إلى تحليلها في أدق صورة تمكّننا من فهمها وتصنيفها ووضع نحو خاص لها، مما يسهم في إنجاح عملية التواصل التي يسعى إليها منتج النص ويشترك فيها متلقيه(...)أو هو الدراسة اللغوية لبنية النصوص"[23].

وفيما يلي سنعرض بعض التعريفات التي اقترحها الباحثون في مجال علم النص:

-يقول مصطفى النحّاس: "نحو النص هو النحو الذي يتخذ من النص وحدته الكبرى للتحليل بعكس نحو الجملة، الذي يعدّ الجملة وحدته الكبرى للتحليل،أو هو دراسة الوظيفة الدلالية لبعض العناصر النحوية وربطها بشبكة الدلالة في النص."[24]

-أما صبحي الفقي فيحدّ نحو النص بأنه"ذلك الفرع من فروع علم اللغة الذي يهتم بدراسة النص باعتباره الوحدة الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عديدة أهمها الترابط أو التماسك ووسائله وأنواعه، والإحالة أو المرجعية وأنواعها والسياق النصي ودور المشاركين في النص(المرسل والمستقبل)، وهذه الدراسة تتضمن النص المنطوق والمكتوب على حد سواء"[25].

-ويقول فريد عوض حيدر عن نحو النص في كتابه(اتساق النص في سورة الكهف)أنه"علم من العلوم الحديثة، إذ تعود بدايته الفعلية إلى أربعة عقود من الزمن تقريبا، وهو يندرج تحت علم اللغة التطبيقي، إذ يهتم بتحليل النص(...)، واتجاهات تحليل النص في علم اللغة النصي متعددة ويمكن تصنيف أهمها في ستة اتجاهات:

1-اتجاه يهتم بالجانب النحوي ومنه أيضا نموذج يعدّ النص سلسلة من الإضمار،وآخر يهتم بالربط بين الجمل، واتجاه التجزئة النحوية للنص عند(فاينرش).

2-اتجاه يهتم بالجانب الدلالي ومنه نموذج السمات المعجمية بوصفها دلائل على الترابط النصي.

3-اتجاه يهتم بالجانب النفسي.

4-وكان(فان ديك)قد قدّم نموذجه النحوي، فوسّع مفهوم النحو بحيث جمع في نموذجه بين عدد من الجوانب المطروحة في الاتجاهات السابقة، تلك الجوانب هي الجانب النحوي والدلالي والاتصالي التداولي...

5-نموذج التحليل النحوي الدلالي للنص الذي قدّمه(بتوفي) وهو قريب من نموذج(فان ديك)،فلم يكتف في تحليل النص بالكشف عن العلاقات الداخلية في النص، بل اتسع لمجموعة المعاني الخارجية للنص والمعاني الإضافية والمعاني الإشارية والمعاني الإحالية والمعاني التداولية وغيرها"[26]

وما يمكن ملاحظته مما سبق أن مفهوم لسانيات النص أو نحو النص يتبيّن بوضوح إذا ما قاربناه من زاوية المنهج الذي يعتمد عليه في دراسة النصوص وتحليلها، فهو ينطلق من فكرة أن النص يعتبر بنية لغوية كبرى(Macro structure) بالإمكان تقسيمها إلى بنيات لغوية صغرى(Micro structure) من خلالها نتوصل إلى بيان علاقات النص الداخلية وخصوصيته وتميّزه عن غيره من النصوص، والتحليل النصي في الحقيقة لا يتجلى في جوهره من خلال تطبيق نحو الجملة وإنما يتحقق من خلال تحليل العلاقات القائمة بين الوحدات النصية التي تضمّ مجموعات من الجمل، لأن للنص بناء شاملا تتجاوز دلالته الكلية دلالة مجموع مفرداته أو جمله"هذه الدلالة تتحقق من خلال التفاعل بين بنياته الصغرى التي تتآزر وتتداعى فيما بينها من أجل أن تؤدي دورها التركيبي والدلالي في تحقيق البنية الكبرى للنص"[27].

إذًا، فمنهج تحليل النص يسعى إلى تفكيك علاقات النص الداخلية ومعرفة أجزائه ومكوناته وطرق ارتباطها وتماسكها، وتحليله إلى عناصره الأولية لغويا ودلاليا وتركيبيا لمعرفة القوانين الخاصة ببنائه وتميّزه، ثم إعادة بنائه من جديد...فيجب أن تكون دراسة البنيات اللغوية الصغرى خاضعة للتدرج الهرمي، أي تواجه النص باعتباره طبقة مركبة، وليست دراسة تتابعية مسطحة تولي تتابع الجمل أفقيا داخل النص جهدها الكامل"فمنهج التحليل النصي يسعى إلى أن يصبح النص كاملا هو موضوع البحث،لذلك يركّز جهوده في دراسة العلاقات على النحو الآتي:

-العلاقات بين الجمل وأشباه الجمل داخل النص مثل دراسة الإجمال والتفصيل، والتوزيع وإعادة التوزيع، والإحالة والانزياح والتكرارات.....

-والعلاقات داخل النص نوعان: علاقات أفقية وهي علاقات بين أجزاء الجملة،وعلاقات رأسية بين الجمل بعضها وبعض، وكلا النوعين له وظيفته الخاصة في بنية النص. وهذه العلاقات الأفقية هي علاقات الإسناد ومتعلقاته من النعت والتعلق والمفعولية والحالية والتكملة عن طريق الإضافة أو الصلة أو غير ذلك. أما العلاقات الرأسية وهي ترابط الجمل بعضها ببعض وتجاورها في بنية النص الواحد فإنها تكون مسؤولة عن تكوين سياق نصي معين يساعد على تفسير التراكيب داخل النص بحيث تصبح كل جملة لا يمكن فهمها إلا من خلال ترابطها بأخواتها في النص"[28]

4-التلقي العربي للسانيات النص:

4-1-إشكالية المصطلح:

للمصطلح أهمية عظيمة في قيام أي نظرية أو علم، لأنه هو الذي يؤطّر المفاهيم الخاصة، فيكتسي كل مصطلح بمدلول خاص يتعلق بالعرفة العلمية الجديدة، الأمر الذي يجعل منه المفتاح الجوهري لفهم الإطار العام والتفاصيل الخاصة للمعارف التي يدلّ عليها...والمثاقفة كما هو معلوم تعدّ فعلا حضاريا يتم بموجبه احتكاك ثقافة ما بثقافة أخرى، احتكاك يقوم على الأخذ والعطاء بنسب متفاوتة، وغالبا لا تكون الثقافتان متكافئتين، ولما كان المصطلح هو بداية هذا الفعل التثاقفي فإننا سنقف عند بعض المصطلحات الأساسية في لسانيات النص لنرى كيف تمّ التعامل معها.

(أ)-مصطلح(Cohesion):

إن الصفة الجوهرية القارّة في النص_في عرف علماء لسانيات النص_هي صفة الاستمرارية، ومفادها ذلك الترابط والتلاحم بين الأجزاء التي تكوّن النص، ثم إن هذه الصفة تتمظهر وتتجلى في سطح النص أو ظاهره،،،"و نعني بظاهر النص الأحداث اللغوية التي ننطق بها أو نسمعها في تعاقبها الزمني، و التي نخطها أو نراها بما هي كمّ متّصل على صفحة الورق،"[29]. والجدير بالذكر أن هذه الأحداث اللغوية تتعالق بعضها مع بعض بفعل خضوعها للمنوال النحوي أو المباني النحوية، لكنها لا تشكل نصا إلا إذا توفرت لها وسائل تماسك تضمن الاستمرارية والاطراد في النص، ويطلق "سعد مصلوح" على مجموع هذه الوسائل مصطلح الاعتماد النحوي، و يتحدث في أشكاله و تنوعاته المختلفة...و يعدّ مصطلح التماسك مصطلحا إشكاليّا، بسبب تعدّد المفردات العربية المستعملة للدلالة عليه، فهو مترجم في الأصل عن الكلمة الإنجليزية(cohesion) إلا أن مقابله في الدراسات النصية العربية متعدّدٌ، وذلك على النحو الآتي:

الاتساق: محمد خطابي و محمد الشاوش

السبك: تمام حسان-سعد مصلوح- جميل عبد المجيد

التضام: إلهام أبو غزالة و علي خليل حمد

الترابط: محمد عطاري

الالتئام: عبد القادر قنيني

الربط اللفظي: عزة شبل محمد

السبك أو الربط أو التضام: أحمد عفيفي

يقول جمعان بن عبد الكريم في إشكالية مصطلح(cohesion)ما يلي: "التماسك مصطلح مترجم عن الكلمة الإنجليزية(cohesion) وقد وقع في ترجمته بعض الاختلاف كالعادة في عملية انتقال المصطلحات العلمية مترجمة إلى العربية، فترجمه محمد خطابي إلى الاتساق في حين ترجمه تمام حسان إلى السبك وترجمته إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد إلى التضام، أمّا عمر عطاري فترجمه إلى الترابط"[30]. ويستنتج في موضع آخر أنّ مصطلح التماسك هو المصطلح الغالب على الدراسات النصيّة العربيّة حيث يقول:"...وفي غياب حلّ حاسم يأخذ على عاتقه مسألة الضبط المصطلحي، وإقصاء العبارة المشهورة(لا مشاحة في الاصطلاح)-في الترجمة خصوصا- يبدو من استعمال المصطلحين في الدراسات النصيّة غلبة استعمال التماسك في(cohesion) وغلبة استعمال الانسجام في(coherence)."[31].

(ب)مصطلح (coherence):

إنّ الحديث عن التماسك يستدعي الحديث عن مصطلح آخر هو الانسجام وهو المقابل للكلمة الإنجليزية (coherence)، ويعنى الترابط المفهومي أو الاستمرارية في مفاهيم النص وأفكاره، فإذا كان التماسك مجاله سطح النص وظاهره، فإن مجال الانسجام هو باطن النص ويتشكّل وفق آليات وأدوات متعددة، مثل بعض العلاقات المنطقية كالسببيّة مثلاً، وعلاقة الإجمال-التفصيل وغيرها. وقد تعدّدت الترجمات العربية لهذا المصطلح، فنجد سعد مصلوح يترجمه إلى (الحبك) وتبعه في ذلك جميل عبد المجيد، وترجمه سعيد حسن بحيرى إلى(التماسك) ومحمد خطابي إلى(الانسجام) وتمام حسان إلى(الالتحام) و(الحبك) و(الترابط المفهومي) والباحثين محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي إلى(التماسك المعنوي) وعادل منّاع إلى(التماسك الدلالي)...لكن وإن تعدّدت المقابلات العربية لمصطلح(Coherence) فإن مدلوله واحد، يتلخّص في كونه العلاقات الخطية الموجودة بين المعاني والمفاهيم و الأفكار في باطن النص، حيث إننا قد نجد ظاهر النص وكأنه خال من أي رابط يربط بين أجزائه، فيستحيل-بفضل فعالية علاقات الانسجام-إلى نص متماسك، متلاحم الأجزاء، ويرى (فان ديك)أن الانسجام أو التماسك الدلالي"عبارة عن خاصية سيمانطيقية للخطاب قائمة على تأويل كل جملة مفردة متعلقة بتأويل جملة أخرى."[32].

(ج)-مصطلح(Text Linguistics):

حيث تعددت أيضا المقابلات العربية لهذا المصطلح، فنجد مصطلح علم اللغة النصي عند صبحي إبراهيم الفقي، وعلم لغة النص عند حسن سعيد بحيرى،ونحو النص عند إبراهيم عفيفي ومصطفى النحّاس، وإبراهيم خليل، ولسانيات النص عند كلّ من محمد خطابي وجمعان بن عبد الكريم وجميل عبد المجيد وأحمد مداس، وعلم النص عند حسام أحمد فرج وزوجته عزه شبل محمد،وسعيد حسن بحيرى في ترجمة كتاب فان ديك:علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ونسيج النص عند الباحث التونسي الأزهر الزناد...لا شك أن هذا الاضطراب الحاصل في نقل المصطلح مردّه إلى غياب استراتيجية موحّدة تضع ضوابط مشتركة تنقل بموجبها المصطلحات، فإجراء التوحّد والعمل الجماعي المشترك خطوة أساسية في سبيل بناء فكر لساني عربي متميّز ومتحرر من قيود التبعية وانقياد المغلوب للغالب على حد تعبير ابن خلدون..."فقد اتّسمت مرجعيات تلقي العرب للمصطلح اللساني النصي باضطراب ناتج عن اختلاف المرجعيات، فعدد من الباحثين توسّل بمرجعية الترجمة سواء من الثقافة الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية، ومنهم من توسّل بالمرجعية التراثية منقبا وباحثا في التراث العربي في النحو والبلاغة والنقد عن مقابل ملائم."[33]

2-4-إشكالية المنهج:

لقد أفرزت إشكالية التراث في حقل اللسانيات رغبة شديدة في ربط النظريات اللسانية الحديثة ومناهج تحليلها بالمعطيات اللغوية العربية التراثية،وعليه **فلسانيات التراث** هي جملة الاجتهادات التي تهدف إلى مقاربة الفكر اللغوي العربي القديم في ضوء النظريات اللسانية الغربية الحديثة. وقد مرت عملية قراءة التراث_من منظور مصطفى غلفان_بمراحل

ثلاث:مرحلة الإحياء،وفيها يتم نشر التراث، ومرحلة الوصف وهي مرحلة تتكفّل بتعريف التراث بأعلامه ومحتوياته وإشكالاته الكبرى. ومرحلة النقد والتفسير،حيث يتم فيها تمحيص التراث وتحليله تحليلا نقديا[34].

لقد أفرزت مرحلة النقد والتفسير هذه تصورا جوهريا يُعرف بالقراءة الجديدة للتراث أو إعادة قراءة التراث في ضوء مقولات الفكر اللساني الحديث...وتنحلّ هذه القراءة الجديدة_في نظر مصطفى غلفان_إلى ثلاثة اتجاهات:

أ-قراءة تمجيدية: تمجيد التراث اللغوي العربي(سلطة التراث)بحكم أسبقيته التاريخية"إن هذا الاتجاه هو ما تتصف به أغلب لسانيات التراث العربية"[35].

ب-قراءة إصلاحية:تحاول إعادة ترتيب المعطيات اللغوية التراثية كإصلاح النحو العربي من بعض الإشكالات كالتعليل والحذف والتقدير وغيرها.، ولعل كتابات تمام حسان تمثل هذا الاتجاه.

ج-القراءة التفاعلية:تقدّم النظرية اللغوية العربية القديمة في إطارها التاريخي المنتج لها،وتعطيها مكانتها الطبيعية لخلق نوع من التفاعل بين الفكر اللغوي العربي القديم واللسانيات الحديثة[36]

والجدير بالذكر أن القراءة الأخيرة(التفاعلية)هي الكفيلة بتحقيق نتائج مثمرة وبنّاءة،حيث تعيد قراءة التراث الغني بمضامينه (الدافع الديني-خصوصيات اللغة العربية...) وقضاياه بعقلية الحاضر، أي بفكر محمّل بحضارة القرة الواحد والعشرين، وليس بعقلية الماضي أو التراث، وهو الأمر الذي ينجم عنه اجترار المعارف التراثية وتقديس السابق والحديث بلسان الماضي وليس المستقبل...وخير من يمثّل هذه القراءة الباحث أحمد المتوكل في النحو الوظيفي، وسعد مصلوح خاصة في قراءته للشعر الجاهلي بطريقة تستثمر معطيات لسانية نصية، حيث فنّد ارتكاز القصيدة الجاهلية على وحدة البيت، بل إن الشعر الجاهلي تحكمه بنيات نصية كبرى بدليل توفره على قرائن متعددة تشير إلى الاتساق والانسجام النصيين، وكذلك الدكتور حماسة عبد اللطيف في اجتهاداته الحثيثة في ربط لسانيات النص بنقد الشعر، حيث يحيي النقد اللغوي العربي القديم بالانفتاح الواعي على إجراءات اللسانيات النصية.

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن القراءة التفاعلية أن نشيد بأعمال الناقد المصري جميل عبد المجيد، والتي وإن كانت قليلة من حيث الكم إلا أنها ناجعة من حيث النوع، خاصة في بحثه المعنون ب:بلاغة النص، حيث عمد إلى قراءة نظرية عربية تراثية وهي نظرية النظم بمنهج لساني معاصر، فنقل نظرية النظم من الجملة إلى النص، بالاعتماد على معاني النحو الخاصة بلسانيات الجملة وعلى بنى النص العامة وأدوات الاتساق وعلاقات الانسجام بين الصور البلاغية الخاصة بلسانيات النص...وهذا في الحقيقة يشكّل قطيعة امتدادية-بمفهوم غاستون باشلار الذي يقسّم القطيعة إلى نوعين : تامة(بين المعرفة العامية والمعرفة العلمية) وغير تامة وهي التي تقع بين المعارف داخل المعرفة العلمية ذاتها، وهذه الأخيرة بدورها تنحلّ إلى نوعين وهما القطيعة التصحيحية والقطيعة الامتدادية...فهندسة إقليدس التي كانت تفسّر الأشكال المستوية حين اصطدمت بأشكال جديدة مقعرة توجب تجاوزها، وهذا التجاوز لا يعني القطيعة الحادة، بل امتداد فرضته طبيعة المدونة. كذلك النظم الذي قوامه معاني النحو والنحو محدود بسقف الجملة، حين اصطدم بواقع جديد يختلف عن الجملة، وجب مواجهته بقواعد جديدة تتلاءم وطبيعة النص. مع الإشارة إلى أن النص هو وحدة دلالية وليس وحدة نحوية كما يقول (فينرش): النص مشقّر في الجمل وليس مكوّنا منها.

خاتمة:

تعكس الأبحاث والدراسات حول التلقي العربي للسانيات عامة ولسانيات النص خاصة،الوجه الاستهلاكي والتبعي في الأغلب، ولكن إذا كانت نتيجة البحث محدودة بسقف التشخيص والنقد، فهي تتدرج أيضا في معنى الاستهلاكية والتبعية. علينا أن نفكّر في السبيل السليم للانفتاح على الثقافة اللسانية الغربية المتطورة لا سيما وأننا نزخر بتراث متميّز من حيث المضامين والاتجاهات. وفي رأيي، إن التجارب التي خاضها بعض الباحثين المعاصرين من أمثال عبد الرحمن الحاج صالح في النظرية الخليلية، وأحمد المتوكل في النحو الوظيفي والعربية، وجميل عبد المجيد في بلاغة النص وغيرهم جديرة بالقراءة

والمتابعة والنقد، إنها معالم تستشرف آفاق أنموذج لساني عربي جديد....إن التحرّر في الفكر العربي المعاصر(الفلسفي، الديني، النقدي، اللساني...) يتمحور حول بناء نموذج إرشادي جديد، ولن يتحقق هذا الأمر إذا لم نقدّر وننقد الدراسات التفاعلية الجادة، لأن كل معرفة جديدة ما هي إلا نقد بنّاء وجريء لمعارف سابقة أو معاصرة.

هوامش البحث:

1- ينظر: الشهري، عبد الهادي بن ظافر،(2004)-استراتيجيات الخطاب(مقاربة لغوية تداولية)- بيروت-لبنان- دار الكتاب-ص5.

2- دي بوجراند (و)درسلر(1998)-النص و الخطاب و الإجراء-ط01-ت:تمام حسان- القاهرة-مصر- عالم الكتب.ص86.

3- أرسطو- (1959)الخطابة-ط01-تح:عبد الرحمن بدوي- القاهرة-مصر- وزارة الثقافة.ص09.

4- العمري،محمد،(2002)-في بلاغة الخطاب الإقناعي-ط02- الدار البيضاء-المغرب-دار إفريقيا الشرق.ص14.

5- ينظر بارت،رولان،(2011)-قراءة جديدة للبلاغة القديمة-ط01-ت:عمر أوكان-القاهرة-مصر- رؤية للنشر والتوزيع.ص46-47.

6- عبد المجيد،جميل،(2003)-علم النص(أسسه المعرفية وتجلياته النقدية) –مجلة عالم الفكر-مج32 –ع 02-ص143.

7- عبد المجيد، جميل،(1998)-البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية-ط01- القاهرة-مصر- الهيئة المصرية العامة للكتاب.ص85-86.

8- خطابي، محمد،(2006) -لسانيات النص:مدخل إلى انسجام الخطاب-ط02- الدار البيضاء-المغرب- المركز الثقافي العربي.ص123.

9- دي بوجراند (و)درسلر(1998)-النص و الخطاب و الإجراء –ص4.

10- نقلا عن: د/سعيد حسن بحيرى-علم لغة النص-ص18.

11- أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية-جامعة منوبة-كلية الآداب-منوبة-تونس-ط01-2001-ج01-ص76.

12- ينظر د/سعيد حسن بحيرى-علم لغة النص-ص18.

13- سعد مصلوح-العربية من نحو الجملة إلى نحو النص-ص407-408.

14- المرجع السابق-ص407.

15- المرجع نفسه-ص407.

16- برند شبلنر-علم اللغة والدراسات الأدبية-ت: محمود جاد الرب-الدار الفنية للنشر والتوزيع-ط01 - 1987-ص184.

17- محمد العبد-اللغة والإبداع الأدبي-دار الفكر-القاهرة-مصر-ط01-1989-ص33.

18- حماسة عبد اللطيف-النحو والدلالة-ص165.

19- الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب-دار جرير-عمان-الأردن-ط01 - 2009-ص32-33

20- الأزهر الزناد-نسيج النص-ص06.

21- المرجع نفسه-ص18.

22- د/عثمان أبو زنيد-نحو النص(إطار نظري ودراسات تطبيقية)-ص31.

23- مصر-2006-ص298.

24- نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب-ص04.

25- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق-دار قباء-القاهرة-مصر-ط01-2000-ج01-ص36.

26- فريد عوض حيدر-اتساق النص في سورة الكهف-مكتبة زهراء الشرق-القاهرة-مصر-2004-ص05-06-07.

27- ليلى يوسف-دور نحو الجملة في تفسير النص-ص230.

28- المرجع نفسه-ص234.

29- المرجع نفسه-ص234.

30- جمعان بن عبد الكريم-إشكالات النص:دراسة لسانية نصية-النادي الأدبي-الرياض-السعودية-ط01-2009ص197.

31- المرجع نفسه-ص222.

32- فان ديك-النص و السياق-ت:عبد القادر فنيني-دار إفريقيا الشرق-الدار البيضاء-المغرب-ط01 - 2000-ص137.

33- عبد الرحمن إكيدر-إشكالية تلقي المصطلح اللساني النصي-مجلة قوافل-الرياض-السعودية-ع37-مارس2018-ص23.

34- انظر:مصطفى غلفان-اللسانيات العربية الحديثة-جامعة الحسن الثاني-كلية الآداب-عين الشق-رسائل وأطروحات-رقم4-1998-ص134.

35- خالد حميد صبري-اللسانيات النصية في الدراسات العربية الحديثة-منشورات الاختلاف-الجزائر-ط1-2015-ص153.

36- ينظر:مصطفى غلفان-المرجع السابق-ص137.